

القبس الثامن من دعاء الافتتاح وشرحه



القبس الثامن من دعاء الافتتاح وشرحه

(فَإِنَّهُ أَرْبَطَا عَنِّي عَتَبَتُ بِرَجْهِ لِي عَلَايَكَ، وَلَعَلَّ الَّذِي أَرْبَطَا عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي لِعِلْمِكَ بِعَاقِبَةِ الْأُمُورِ...) ..

في هذه الفقرة من دعاء الافتتاح يشار إلى حقيقة مهمة، لو التفتنا إلى هذه الحقيقة لحلت لدينا مشكلة من المشاكل، وهذه المشكلة متمثلة في الشكوى من عدم استجابة الدعاء.. فالعبد يدعو ربه دعاءً بليغاً حثيثاً في جوف الليل، أو في ساعة السحر، أو في ليالي شهر رمضان المبارك، ولكن لا يرى أثراً للإجابة.. وهنا يأتيه الشيطان ليقول له بأنه أين الإجابة؟.. أين الوعد الإلهي لعبده حيث قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ﴾؟.. وهكذا يوسوس له الشيطان، وإذا به يتحول الأمر من عدم الإجابة إلى ما هو أسوأ من عدم الإجابة، ألا وهو الشك في قدرة الله تعالى، وفي كرمه، ويعيش حالة من حالات السخط وعدم الرضا بالقضاء الإلهي.

ولكن هذه المشكلة يجاب عليها في خلال هذا الدعاء، فأدعية أهل البيت (عليهم السلام) ليس لمجرد الدعاء، وإنما لذكر مفاهيم كبرى في هذا الوجود..

إن العبد ينظر إلى حياته الدنيا، إلى هذه السويقات القصيرة في الحياة الدنيا، ولا يلتفت إلى أن هذه السويقات تقرر مصير الأبد.. إن البلاء الذي يعيشه الإنسان المؤمن في سنة من عمره، فإنه يتحول إلى نعيم خالد وإلى جزاء لا يخطر ببال أحد في عرصات القيامة.. والإنسان المؤمن طموحه عالٍ، فهو يريد أن يعيش الأبدية في مقعد صدق عند مليك مقتدر.. لماذا نتبرم من بلاء قصير في هذه الحياة الدنيا؟!.. لنكن كما في وصف المتقين لعلّي (عليه السلام): (صبروا أياماً قصيرة، أعقبتهم راحة طويلاً)..

إذن، المؤمن الذي لا يعلم عواقب الأمور، ولم يكشف له الغطاء، ولا يعلم ما الذي أعده الله عز وجل لعباده المؤمنين؛ لماذا يستعجل قضاء الحوائج؟!.. إذا كان يعلم بأن الله عز وجل سوف يعوضه بما لا يخطر على بال أحد، فإن هذا الإحساس يوجب له السكينة.. ولهذا امرأة فرعون -وهي امرأة زوجة شر خير خلق الله-، كانت تتحمل ذلك التعذيب، وتطلب من الله عز وجل أن ينجيها من عذاب فرعون؛ لأنها تعلم ما الذي ادخره الله عز وجل لها، ويا لها من امرأة صابرة!.. وما يؤكد شدة يقين هذه المرأة، أنها تطلب من الله عز وجل بيتاً في الجنة، وهذا البيت يبنيه رب العالمين، هي تطلب مقام العندية عند الله سبحانه وتعالى: رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ..

وكم من القبيح أن يعاتب الإنسان ربه، متهماً إياه بعدم حكمته!.. والعبد قد لا يصرح بهذه المعاني، إذ لو أجراها على اللسان لوصف بالكفر، ولكن الكثيرون منّا -من دون مجاملة- في مقام العمل يكفر بالله عز وجل.. وهنيئاً لمن وصل إلى مرحلة التوحيد الشامل الكامل في كل أبعاد وجوده.. رزقنا الله تعالى وإياكم بمنه وكرمه!..